

تصوير الشخصيات في القرآن الكريم

د: عبداوي حفيظة
-كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس

يتناول التصوير الفني في القصة القرآنية عنصر الشخصية التي هي أساس النسيج الفني كله، والتي تنمو قليلا، وتطور شيئا فشيئا بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، وكلما قطع القارئ منها شوطا فاجأته بشيء جديد فيها، وكشفت له عن جانب من جوانب العاطفة الإنسانية المعقدة.

والقرآن حين يقدم لنا التصوير الفني للشخصيات إنما يقدمه بشكل مقنع، وذلك يمنح كل شخصية من تلك الشخصيات صفة تبرر موقفها القصصي. تبريرا موضوعيا في محيط القيم التي تتفاعل معها، فينشأ بينهما التأثير والتأثير. ومما يلحظ في القصة القرآنية هذا التصوير الواضح للشخصيات التي يمكن اعتبار كل واحدة منها نموذجاً في مجاله الفردي أو الجماعي.

وكثير من القصص القرآني تشترك فيه شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية، بينهما تلاحم إنهما تتظافران " على دعم الفكرة أو الأفكار الجوهرية فيها، وذلك بتلاقيهم في حركتهم نحو مصائرهم، وتجاه الموقف العام في القصة ويلاحظ في التصوير القرآني لهذين النوعين من الشخصيات إنهما مأخوذان من واقع الحياة، وكل شخصية منهما لها دورها ورسالتها التي تؤديها في أغراض القصة وأهدافها¹.

أما الشخصيات الرئيسية فتسهم في صنع الأحداث أو تدور الأحداث حولها مثل آدم وإبليس، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب، وسليمان وملكة سبأ وموسى وفرعون، ويوسف، وهي شخصيات فردية، ومن الشخصيات الرئيسية الجماعية أبناء يعقوب - عليه السلام - في قصة يوسف، وبنو إسرائيل في قصتهم مع موسى، والملائكة في أكثر قصص الأنبياء، وسحرة فرعون.

وأما الشخصيات الثانوية فدورها محدود في القصة، ولا يتكرر ظهورها فيها مثلما تكرر الشخصيات الرئيسية منها الملائكة في قصة آدم، وامرأة فرعون في قصة موسى، وشيخ مدين وابنتاه، وفتى موسى في قصته مع العبد الصالح، وهارون.

والنظر في شخصيات القصة القرآنية يكشف لنا عن ذكر أسماء بعض الشخصيات، وإغفال بعضها الآخر، ولعل أسماء الأنبياء هي أكثر ذكرا من أسماء معانديهم، وفي ذلك تكريم لهذه الفئة التي حملت أعباء الدعوة الإسلامية ونهضت بها، أما بعض الكافرين الذين علوا في الأرض كفرعون وهامان وقارون ففي ذكرهم تشهير بعنادهم والسخرية منهم، فهم ملعونون إلى يوم القيامة، وفي عاقبتهم المشينة عبرة لمن أراد أن يعتبر.

ومما يلفت النظر في تصوير القصة القرآنية للشخصيات، إبرازها للملامح العقلية والنفسية والخلقية مع عدم إغفال الجانب الجسدي في كثير من الأحيان².

أ. شخصية آدم - عليه السلام - : نجد في قصة آدم - مثلا - حديثا عن المادة التي خلق منها، كما نجد وصفا لضعفه النفسي والذاكراتي معا يقول تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)³.

إن الشيء الذي عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له... قوله (لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) ... لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة، ومواظبة على التزام الأمر⁴. وهكذا يتجلى ضعفه أمام عدوه إبليس، ونسيانه أمر الله، فكان عاقبته أن أهبط إلى الأرض، بعدما كان في جنة الفردوس يتبوأ منها حيث يشاء.

أ. شخصية موسى - عليه السلام - :

تظهر شخصية موسى من خلال ما وردت فيه من قصص - وهي من أكثر القصص القرآني ورودا - حادة الطبع والمزاج، سريعة الإنفعال، قوية الجسم. وفي المقابل هي "سريعة في هدوئها وأثراتها، وليس معنى ذلك أن يفهم الإنديفاع على أنه خلل أو تهور، فما كان لرسول مختار أن يكون كذلك وإنما هي - أحوال المفاجأة - المثيرة التي تخرج الإنسان عن هدوء الطبع، وإنما هي - أحيانا أخرى - تلك الغضبة للحق إذا ما كان هناك مجال للغضب، أو هي الحماسة البالغة من أجل إدراك الحقيقة والصواب في بعض الأحيان⁵.

كما تبرز هذه الصفات جليلة في كل أطوار حياته، منذ أن وكز الرجل المصري الذي كان يقتل مع الإسرائيلي، فقصي عليه، ثم أناب إلى ربه مستغفرا حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي نفسه يقتل مع مصري آخر هم بالمصري مرة أخرى⁶، يقول تبارك وتعالى: (وَدَخَلَ

الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ).⁷

يصور هذا المشهد موسى القوي والفتي، كما يصور طيبة قلبه وسرعة ندمه، فقد رجع إلى نفسه لا تماً، وأقرب بذنبه، وراح يطلب الغفران (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي)⁸، ويرتسم هذا المشهد أمام المتلقي، كأنما هو ينظر الآن إلى موسى، ويقف على ملامح وجهه المليئ خسارة ونلماً، إنه رافع يديه، ومبتلئ إلى ربه وداعي، وطالب الغفران.

القوة والعفة والأمانة: نلمس في شخصية موسى - عليه السلام - القوة والعفة والأمانة بدليل قوله تعالى على لسان إحدى ابنتي شعيب: (قَالَتْ إِحْلَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)⁹.

وفي قوله تبارك وتعالى: (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)¹⁰ نجد صورة موسى الذي لا يتوانى عن تقديم يد العون والمساعدة لكل معوز محتاج.

ونلتقي بموسى الذكي الفطن، بدليل أنه لما أمره ربه بالذهاب لدعوة فرعون: (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)¹¹. ثم بموسى الغير قادر على توجيه الدعوة وتوصيلها كما ينبغي لعدم فصاحته: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)¹².

يصور لنا السياق القرآني في موضع آخر شخصية موسى الشغوفة بحب الاستطلاع يقول تبارك وتعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَفْظُرُ إِلَيْكَ)¹³، إن سؤال موسى رؤية الله تعالى تطلع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي، لأنه لما كانت الموعودة تتضمن الملاقاة. وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث، وحصب بموسى أحد ركني الملاقاة وهو التكليم، أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو المشاهدة، ومما يؤذن بأن التكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية¹⁴.

هذه بعض المشاهد التي نطلع من خلالها على شخصية موسى - عليه السلام - كأنما نراه بسماته وحركاته، إنه مثال للزعيم المندفع الذي لا يصبر على رؤية الظلم، إنه صاحب شخصية انفعالية تظهر جلية من خلال مواقفه المتعددة.

لعل ما يميز شخصية موسى عليه السلام من الناحية الكلامية - عدم الإبانة - كما وصفه بذلك فرعون (وَلَا يَكَاذُ يُبِينُ)¹⁵ ، وصرح به هو نفسه حين قال : (أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) ، واعترافه هنا يدل على أنه كان بلسانه لكنته حالت دون توجيه الدعوة و توصيلها.

وتقع أبصارنا في التصوير القرآني للشخصيات على بعض ملاحظاتها الجسمية ، كقوة موسى عليه السلام - لقوله عز وجل : (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)¹⁶ ، فلو لم يكن موسى يتمتع بقوة كافية ما استطاع أن يقضي على القبطي بوكزة واحدة ، كما تتجلى قوته وأمانته في قوله تبارك وتعالى على لسان إحدى ابنتي الشيخ : (قَالَتُ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)¹⁷.

و يصور التعبير القرآني عصية موسى - عليه السلام - في :

1. الحالة النفسية التي رجع بها : (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا أَسْفًا)¹⁸ ، والأسف هو أشد الغضب كما قال أبو الدرداء¹⁹.

2. الفعل الذي قام به : (وَأَلْقَى الْأَنْوَاحَ)²⁰ إن إلقاء الأنواح كان إظهارا للغضب ، "أو أثرا من آثار فوران الغضب لما شاهدتهم على تلك الحالة ، وما ذكر القرآن ذلك الإلقاء إلا للدلالة على هذا المعنى"²¹.

3. أخذه بلحية أخيه هارون ورأسه بعد رجوعه من ميقات ربه : (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ)²² أي : إمساكه بشعر رأسه ، وذلك يؤله ، فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل²³.

4. الكلام الذي صدر عنه : (قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)²⁴ ، كما أن الشأن في جر رأس أخيه "لا يقع إلا مع كلام توبيخ ، وهو ما حكى في سورة طه بقوله : (قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)²⁵ على عادة القرآن في توزيع القصة ، واقتصارا على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه الذي قصد منه الموعظة أساليب القصصين الذين يقصصون الخبر بكل ما حدث²⁶.

ج. شخصية طالوت : تبين هذه الشخصية و تتضح في قوله تبارك وتعالى : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)²⁷.

لقد اختاره الله "وهو الحجة القاطعة، ويّين لهم مع ذلك تحليل اصطفاء طالوت، وهو بسطته في العلم الذي هو ملك الإنسان، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء، فتضمّنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة"²⁸.

إنها شخصية ملكة الكثير من العلم، ومن قوة الجسم مالم يملكه غيرها، وهي صورة تبدو واضحة للعالم من خلال هذه الآية الكريمة.

والقرآن الكريم لا يذكر من الملامح إلا ما كان ذا قيمة واضحة في القصة وما يخدم غرضها الديني "وأبرز ما يلاحظ في التصوير القرآني للشخصية بصفة عامة أمانة النقل في حكاية أقوالها، ودقة التعبير عن مشاعرها، وصدق الترجمة الباطنية عن خواطرها"²⁹ والقصة القرآنية صدق كلها، لا ينبغي أن يرتاب فيها مرتاب.

تحرص القصة القرآنية على تصوير الأشخاص تصويراً جلياً واضحاً كأننا نراها ونشاهدها، وتصاحبنا عبارات تصور درجة انفعالها "وكان المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه، ولو أن مصوراً متحرراً يصور الشخص في مشهد من مشاهد الدعر، ما كان أكثر تصويراً من الألفاظ القرآنية والأساليب في تصويرها"³⁰، إذن لا يختلف اثنان في أن الصورة القرآنية ليس لها نظير بين الصور، فلها عدستها المميزة التي يستحيل العثور على مثيلتها، مهما كثرت الإكتشافات وتعددت وتنوعت عبر العصور المختلفة.

هـ شخصية إبراهيم - عليه السلام - :

من الشخصيات القصصية التي صورت تصويراً رائعاً، نجد شخصية إبراهيم - عليه السلام - ها هو وهو الصبي يخلو بنفسه متأملاً في ملكوت السموات والأرض باحثاً عن خالقه : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْتَدِ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)³¹.

تظهر شخصية إبراهيم الخليل عليه السلام - في هذا القصص شخصية مثالية، إنه يحاول التطلع لليقين، والإمثال لأمر الله، كما يظهر حلمه ورأفته بقومه، فلقد كان الخليل أمة بنفسه كما أتى عليه تبارك وتعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)³².

إن بعد نظره، ورجاحة عقله وكثرة تأمله في ملكوت السموات والأرض دفعته إلى البحث عن الخالق الأعظم، وقد استعان في ذلك بفطرته السليمة حتى هداه الله إليه فوجده؛ ولكنه لم يجد في كوكب يلمع، ولا في قمر يطلع، ولا في شمس تسطع، ولا فيما تبصره عيناه، وتدركه حواسه، وإنما وجده في كيانه وفي الوجود كله³³.

إنه يحب الإطلاع على الأمور بل والتطلع إليها، حتى يكون إيمانه عن معرفة كاملة، ولعل هذه الرغبة الكامنة بداخله هي التي دفعته إلى أن يسأل ربه عن كيفية إحياء الموتى، حتى يطمئن لإيمانه بالبعث، ويدفع كل شبهة يمكن أن تجول بخاطره يقول تبارك وتعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتِ تَوَافُرُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)³⁴.

وما نظن أن إبراهيم عليه السلام - شك في قدرة الله على إحياء الموتى ولكنه طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبر به؛ ولهذا قال عليه السلام: ليس الخبر كالمعاينة³⁵.

ويصور القرآن الكريم شخصية إبراهيم - عليه السلام - وهو يحاور أباه محاولاً إقناعه بهجر عبادة الأصنام والشيطان لينجو من عذاب الله: (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)³⁶.

تظهر شخصية إبراهيم من خلال هذا المشهد شخصية هادئة، متزنة، متوددة إلى والدها هذا التودد المصحوب باللين يصوره أسلوب النداء المتكرر (يا أبت)، من أجل توكيد الدعوة وترسيخها.

ولكن أباه يواجهه بموقف صلب غليظ، إنه يعجب كيف يرغب ابنه عن آلهته، فيهدده بالرجم، ويتوعده بالطرد إن لم يتبه ويتراجع (قَالَ أَرَأَيْتَ أَتَتْ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تُنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)³⁷.

ولكن هذه الإساءة من الأب لم تفقد الابن أدبه ولا رفقته، ولا يره بأبيه، ولا حبه له، إنه لم يطلب له العذاب ولا الهلاك وإنما: (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَرُكُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)³⁸.

ولا عجب في ذلك فإبراهيم صاحب قلب كبير يغمره الرفق والحلم على الناس بالرغم من إيذائهم له، فكيف إن كان المؤذي والده؟.

ويصاحب الهدوء والرزاق إبراهيم من صباه إلى شيخوخته، بل إن الشيخوخة تزيد حُلماً ووقاراً، ها هو ينزل مكة مع أهله فيجد الأرض قفراً، والمكان جدياً فيلجأ لله تبارك وتعالى متضرعاً داعياً: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)³⁹.

وهاهي الملائكة تزور إبراهيم - الشيخ - لتبشيره، ولا يفصح السياق عن هذه البشرية إلا بمجيء امرأته، التي استغربت أن تلد وزوجها شيخ كبير، كما جاءت لتنتقل إليه نبأ هلاك قوم لوط يقول تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يَعْجَلُ خَبِيرًا فَلَمَّا رَأَى أَنِلَيْهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَنَا أُبَشِّرُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)⁴⁰.

وتظهر شخصية إبراهيم من خلال هذه الآيات سخية رعوفة، فقد أكرم ضيوفه واطمأن إليهم، وفرح بالبشرى التي حملوها إليه، ولكنه وفي غمرة هذا الإطمئنان والفرح لم ينس قوم لوط، إنه لا يريد لهم أن يهلكوا ولذلك راح يسأل ربه متضرعاً إليه، مجادلاً للملائكة في مصيرهم، فيجيبه الرد القاطع بهلاكهم، وإن لا مجال للجدال فأمر الله قد قضى فيهم⁴¹.

ز. شخصية نوح - عليه السلام - :

وتطالعنا في القصص القرآني شخصية نوح القوية التحمل والصبر، ويتضح ذلك في قوة تحمله لأعباء الدعوة، فقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا القليل يقول تبارك وتعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)⁴².

كما تظهر شخصية خاشعة منبئة لله خاضعة لأوامره، وذلك حينما أمره ربه ألا يخاطبه في القوم الظالمين، وفاته ذلك وتحركت عاطفة الأبوة فيه يخاطبه في ابنه، فاعتذر عن ذلك: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)⁴³.

ولا شك أن لبشريته تأثيراً في شخصيته، إذ بعد أن طالت مدة مكثه فيهم يشس منهم ويتشس فيدعو عليهم قال تبارك وتعالى: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَاراً إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)⁴⁴.

ك. شخصية يوسف - عليه السلام - : تجتمع في شخصية يوسف - عليه السلام - جملة من الصفات والمبادئ العظيمة نلخصها في ما يأتي:

أ. النفس المؤمنة الصابرة.

ب. سعة الحيلة / قوة الذكاء / حصافة الرأي.

إن هذه الشخصية رسمتها الريشة القرآنية بجانيها الحسي والمعنوي، فكشفت عن أبعادها العقلية، والجسمية، والعاطفية، مثلما أبرزته صور الأحداث في قصته والتي سيكون لها فضاء خاص في الفصل الرابع من هذا البحث.

والملاحظ من خلال مل سبق أن إبراز سمات الشخصية في القرآن الكريم يقوم على مبدأ عام يسمى في علم النفس "اتساق شخصية الفرد"، "بحيث إن سلوكه يتناغم بصفة مستمرة مع الظروف الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر وتؤثر في سلوكه، وتحدد وجهته ومخطه"⁴⁵.

وذلك إنما يظهر في التصوير القرآني الذي ينقل للمشاهد التي يتحرك الأفراد من خلالها بأمانة تامة.

والتركيز على الشخصيات في القصة القرآنية ليس لذاتها، وإنما لتصوير أفكار الدعوة، ذلك أن الشخصيات القصصية في القرآن الكريم تلتقي في الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك. وترتبط الشخصية في القصة القرآنية ارتباطاً وثيقاً بالأحداث إذ كلما كثرت الأحداث طالت القصة وزاد حجمها، وكلما قلت الأحداث قصرت القصة ونقص حجمها.⁴⁶

إذن فالعلاقة بين الشخصيات والأحداث علاقة جدلية، فلا شخصية بلا حدث، ولا حدث بها شخصية، بل يفترض وجود أحدهما مع وجود الآخر

الهوامش:

1. هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، دط، دت، ص 533.
2. ينظر خلف الله محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 274.
3. سورة طه، الآية 115.
4. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج 6، ص 3302.
5. صلاح الدين محمد عبد التواب، النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث، مصر، 2003، ص 122- 123.
6. ينظر قطب سيد، في ظلال القرآن، مج 5، ج 20، ص 2681- 2682.
7. سورة القصص، الآية 15.
8. سورة القصص، الآية 15.
9. السورة نفسها، الآية 26.
10. سورة القصص، الآية 24.
11. سورة القصص، الآية 33.
12. سورة القصص، الآية 34.
13. سورة الأعراف، الآية 143.
14. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دط، مج 4، ج 9، ص 91.
15. سورة الزخرف، الآية 52.
16. سورة القصص، الآية 15.
17. سورة القصص، الآية 26.
18. سورة الأعراف، الآية 150.
19. ينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 248.
20. سورة الأعراف، الآية 150.

21. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 4، الأجزاء 8- 9، ص 115.
22. سورة الأعراف، الآية 150.
23. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 4، الأجزاء 8- 9، ص 116.
24. سورة الأعراف، الآية 150.
25. سورة طه، الآيتان 92- 93.
26. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 4، الأجزاء 8- 9، ص 116.
27. سورة البقرة، الآية 247.
28. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج 2، ص 908.
29. نقرة التهامي، سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1971م، ص 361.
30. أبو زهرة محمد، المعجزة الكبرى في القرآن، ص 149.
31. سورة الأنعام، الآيات من 76 إلى 80.
32. سورة النحل، الآيات، من 120 إلى 122.
33. ينظر قطب سيد، في ظلال القرآن، المجلد 2، ج 7، ص 1141.
34. سورة البقرة، الآية 260.
35. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج 2، ص 945.
36. سورة مريم، الآيات من 40 إلى 45.
37. سورة مريم، الآية 46.
38. سورة مريم، الآيتان 47- 48.
39. سورة إبراهيم، الآية 37.
40. سورة هود، الآيات من 69 إلى 76.
41. ينظر قطب سيد، في ظلال القرآن، مج 4، ج 12، ص 1912- 1913.
42. سورة هود، الآية 4.
43. سورة هود، الآية 47.
44. سورة نوح، الآيتان 26- 27.
45. فهمي مصطفى، الصحة النفسية، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط 2، 1955م، ص 66.
46. ينظر الراغب عبد السلام أحمد، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم، ص 290.